خنقة (سيدي) ناجي " تونس الصغيرة " بالجزائر:
تراث ثقافي معماري إسلامي مشرق في تاريخ المغرب العربي

د. عبدالحليم أحمد عساسي

أستاذ محاضر بمعهد الهندسة المعمارية والعمران، جامعة باتنة 1، الجزائر.

البريد الإلكتروني: abdelhalim.assassi@univ-batna.dz

أ. هشام الصالح بوعزيزي

أستاذ الشريعة بثانوية محمد بوصبيعات، بسكرة، الجزائر.

البريد الإلكتروني: hichamebo07@gmail.com

الملخص

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله في الآية سبع وثلاثين من سورة إبراهيم، بعد أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم: " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ "؛ آية كان يرددها الشيخ (سيدي) " المبارك بن قاسم " يرحمه الله عند ما قصد منطقة " مورد النعام " بالجزائر (خنقة (سيدي) ناجي حاليا) بعد رؤية رآها في المنام أين أسس أول لبنة لهذه المدينة عام 1010هـ / 1602م والتي أصبحت بحق تباعا مقصدا لطلب شتى العلوم. لكن في يومنا هذا، الزائر لـ " خنقة (سيدي) ناجي " التي تبعد بحوالي 100 كم شمال شرق عاصمة الولاية بسكرة، يلاحظ مشكلا أساسيا يتمثل في الإهمال المجحف بحق هذه المدينة الأثرية رغم قيمتها التاريخية والتراثية. نهدف من خلال البحث هذا إلى التعريف بهذه المدينة الأثرية " خنقة (سيدي) ناجي "، وإبراز أهمية تراثها الثقافي المعماري وأهم شواهده، مع تبيان أبعاده التاريخية والثقافية والفنية، وذلك من خلال المنهج الوصفي التحليلي المبني على البحث الميداني باستخدام كل من المراجع والمصادر المتوفرة، والاستجوابات مع السكان الأصليين والصور الفوتوغرافية وذلك بعد الملاحظة العينية المتفحصة. يتكون البحث من مقدمة فيها تم ذكر موضوع البحث ومشكلته وحدوده وأهدافه ومنهجه وإجراءات وخطته، ومبحث خاص بمفهوم التراث ومعايير التصنيف العالمية المتعلقة به، ثم جزء ميداني يهدف إلى إبراز الخصائص والمميزات الطبيعية والتاريخية والتراثية والفنية لـ " خنقة (سيدي) ناجي "، لننهي البحث بخلاصة نؤكد فيها أهمية هذه المدينة الأثرية مع التوصيات المتعلقة بضرورة المحافظة عليها وإعادة بعثها من جديد.

الكلمات المفتاحية

خنقة (سيدي) ناجي، التراث المعماري، المدينة الأثرية.

Khonguet (Sidi) Nadji " Small Tunisia " in Algeria A Bright Islamic Cultural Heritage in the History of the Arab Maghreb

Dr. Abdelhalim Ahmed Assassi
Lecturer at the Institute of Architecture and Urbanism, University of Batna 1, Algeria.
E-mail: abdelhalim.assassi@univ-batna.dz

Hicham Salah Bouazizi
Professor of Sharia at Mohammed Boussbiaat High School, Biskra, Algeria.
E-mail: hichamebo07@gmail.com

Abstract

Sheikh (Sidi) "Mubarak bin Qasim" was reciting verse 35 of Surah Ibrahim from the holy Koran when he went to “Mawrid Ennaam” in Algeria, which is called now “Khonguet (Sidi) Nadji” after a seeing in a dream, where he founded the first building for this city (The year 1010 AH / 1602 AD), which have rightly become a destination for seeking knowledge and various sciences. But today, the visitor to the “Khonguet (Sidi) Nadji” notes the neglect of this ancient city despite its historical and heritage value. Through this research, we aim to introduce this historical city, and to highlight the importance of its architectural cultural heritage through its evidences, with the statement of its historical, cultural and artistic dimensions, and basing on an analytical descriptive approach and using both references and available resources, interviews with indigenous people and photographs, and all this after a close observation. Our research consists of an introduction in which the topic of the research, its problem, its limits, objectives, methodology, procedures and plan were mentioned, and a first research part on the concept of heritage and the relevant international classification standards and criteria, and then a second research part which aims to highlight the natural, the historical, and the artistic characteristics and features of “Khonguet (Sidi) Nadji”. At the end of this research, we discussed a conclusion, in which we emphasize the importance of this ancient city, and we mentioned recommendations regarding the need to preserve and reactivate it again.

Keywords

“Khonguet (Sidi) Nadji”, Architectural Heritage, Archaeological City.

مقدمة

الإبداع مبدأ اعتمده الإنسان من حضارة لأخرى، يهدف من خلاله لإذلال الصعوبات وتحسين المحل الذي هو فيه سواء في جانبه المادي الاستخداماتي أو الروحي الجمالي الميتافيزيقي الذي يعود عليه بتقبل الطراز الذي تبناه شيئا فشيئا بل يكافح من أجل بقائه وتوريثه. وتعتبر العمارة عبر الحضارات دليلا لمدى تطور الإنسان، إذ اتخذت العمارة مبدأ الإبداع في نمط التوظيف لعناصر العمارة على اختلاف المنطلقات الفكرية المعمارية وفقا للزمان والمكان. مثال ذلك المدينة التاريخية " خنقة (سيدي) ناجي " التابعة لولاية بسكرة بالجزائر وعلى اختلاف المراحل الزمانية التي مرت بها وفي ظل الإمكانيات الطبيعية للبيئة التي غرست فيها، فقد أنتجت تراثا مبنيا بديعا يستحق فعلا تصنيفه وإدراجه ضمن قائمة التراث العالمي لليونيسكو لاستوفائه شروط هذه الأخيرة، فهي لا تقل أهمية عن منطقة وادي مزاب التي صنفت منذ زمن بعيد، ورغم ما تتميز به " خنقة (سيدي) ناجي " من أهمية تراثية وتاريخية وفنية جمّة، إلا أنها تشهد إهمالا حقيقيا ومجحفا من طرف السلطات المحلية فما بالك بالسلطات المركزية.

يهدف البحث إلى إظهار أبعاد " خنقة (سيدي) ناجي " التاريخية والثقافية والفنية، وذلك بعد التعريف بها. واعتمادا على المراجع المتوفرة والبحث الميداني بعين المكان نقوم بالوصف والتحليل اللازمين للوثائق والمعلومات المكتوبة والمرئية والمسموعة. البحث مقسم إلى جزء نظري حول التراث ومعايير اليونيسكو الخاصة بانتقائه، وجزء ميداني نبرز من خلاله مميزات " خنقة (سيدي) ناجي " التاريخية والثقافية والفنية.

مفاهيم حول التّراث المبني

ماهية التّراث المبني

يمكن اعتبار التّراث المبني مظهرا من مظاهر التّراث المادّي الذي يعنى بالبعد الثّقافي والذي يسعى من خلاله المهتّمون والمتخصّصون في فكّ المعاني التّي يقدّمها من أجل عرض سياحة ثقافية ناجعة، ذلك إذا ما قدّم بالشّكل المطلوب وتمّ الاعتناء به بشتى الطّرق، فيعود على الفرد والجماعات بالفائدة بكلّ أشكالها[1]. التّراث المبني هو العمران الذي يعكس ثقافة معيّنة لمجتمع معيّن في زمن معيّن وفي مكان معيّن، فهو يعبّر عن طريقة التّفكير الفردية والجماعية في رسم الحيّز المبني الذي يحوي نمطا معيّنا للمعيشة وذلك اعتبارا لمعطيات تاريخية وجغرافية وطبيعية ودينية وثقافية واقتصادية واجتماعية معيّنة، ورغم مختلف المعوّقات داخلية كانت أو خارجية، وضمن منطق زمكاني سائد.

التّراث المبني هو[2]:

– كلّ بناية غير محميّة في إطار الآثار التّاريخيّة. – العمارة اليوميّة (المدنيّة أو العسكريّة).

– كلّ بناية من الفترة ما قبل الصّناعيّة (سابقة للحرب العالميّة الثّانية). – كلّ منشأ له قيمة ثقافيّة وتقنيّة.

التّراث المبني هو الفكر البنائي المشترك بين الجماعات والمجموعات الإنسانيّة، والذي يعتبر إرثا منقولا من طرف الأجداد، فهو مرتبط بمجتمع وفترة زمنيّة محدّدة. كما أنّ التّراث مرتبط بالهويّة لأنّه يجسّد الذّاكرة، حيث أنّ الهويّة يمكن أن تكون فرديّة أو جماعية، بيد أنّ الهويّة الفرديّة لها جذورها في الهويّة الجماعيّة. التّراث المبني يعبّر عن الممارسات اليوميّة للجماعة والفرد وذكريّاتهم، معبّرا عن ذوق مشترك وتقاليد جهويّة ويجمع الأجيال ليؤسّس ثقافة محلّيّة لها خصوصيّتها. ويؤكّد ذلك البيان التّالي الخاص بمقاطعة كيبك بكندا فيما يتعلّق بالتّراث:

---

[1] مشاري عبدالله النعيم، (2010). **سفر العمران**، ط1. الدمام: مطابع الشركة الشرقية.

[2] www.restauration-patrimoine.fr/missions.php

"... نؤكّد حقّنا في الذّاكرة وواجب الاحترام اتّجاه الآخرين والأماكن... نؤكّد معنى وأهمّيّة تراثنا بالنّسبة للمجتمع وبالنّسبة لكلّ فرد الذي يعتبر واحدا من مكوّناته ..."[3].

ملاحظة التّطوّر التّاريخي لمفهوم التّراث المبني لا يمكن أن يتأتّى إلاّ بالأخذ بعين الاعتبار الإطار الاجتماعي والثّقافي والذي منه يمكن معرفة الخبايا والخلفيات المتعلّقة بالمنتوج التّراثي، فبالأسس الثّقافيّة وبمعرفة المواقف المتجذّرة في التّقاليد المتوارثة جيلا بعد جيل، يمكن فهم التّراث المبني الذي نحن بصدد دراسته وفهمه. وعند الحديث عن التّراث المبني، نتحدّث عن علاقتنا بآثار الماضي التي تركها الأشخاص في منظور التّاريخ والمجتمع والتّعامل مع المكان والمواد التي تتواجد في المحل والتي يستخدمها إنسان الحقبة الزّمنيّة الماضيّة بعفوية وبراغماتية متناهية من جهة، وبذكاء فطري من جهة أخرى. يعتبر التّراث المبني بنايات وبقايا بنايات وهياكل وأجزاء من تجمّعات عمرانية أو من مدن أو من قرى، التي تحمل قيّما تاريخية وفنّيّة ومعماريّة أو معاني ثقافيّة حاملة بداخلها مظاهر من الطّبيعة أو تتناغم معها. وما يجب معرفته هو أنّ المنظر الثّقافي حول أو بداخل مواقع التّراث المبني يتطلّب ترجمة تفسيرية ونقديّة. التّراث المبني قادر على إفادة الإنسان بالاستخدام المفيد له، فهو يحوي الحياة والممارسة اليومية للإنسان.

" التّراث المبني يعني ويتضمّن كل بناية أو قسم منها و/ أو الهيكلة و/ أو البقايا التي تتطلّب محافظة و/ أو حماية لهدف تاريخي و/ أو معماري و/ أو حرفي و/ أو جمالي و/ أو ثقافي و/ أو بيئي و/ أو إيكولوجي ويتضمّن أجزاء من المجاورات مثل البناية أو قسما منها والذي يحتمل تسييجا أو غلافا واقيّا أو أية طريقة حماية للقيمة التّاريخيّة و/ أو المعماريّة و/ أو الجماليّة و/ أو الثّقافيّة لتلك البناية "[4].

كما يمكن تعريف التّراث المبني على أنّه البنايات وآثار وتجمّعات عمرانية تستحقّ المحافظة أو الحماية[5]. والتّراث المبني يحوي عدّة عناصر[6]:

– عناصر فرديّة (كل البنايات من كل الأنواع): منازل حضريّة ومنازل ريفية وبنايات صناعية ومستودع الغلال ومستودع الحصيد وغير ذلك.

– بنايات دينيّة ومطاحن ومقابر.
– آثار تاريخيّة مصنّفة.
– آثار تاريخيّة معروفة.
– آثار تاريخيّة مذكورة.
– مقاطعات تاريخيّة.
– مواقع تاريخيّة.
– مواقع للتّراث.

نبذة عن تطوّر مفهوم التّراث

انتشر مفهوم التّراث أثناء سبعينيّات القرن الماضي في ظلّ التّعريف الآتي:

" هو ذلك الشيء الذي تمّ إرثه أو قد يكون هناك احتمال ليتمّ إرثه؛ أيّة ملكيّة عقّارية خاصّة أو عامّة التي ارتقت لأن تكون إرثا "[7].

[3] www.constructif.fr/bibliotheque/2006-2/les-sens-multiples-d-un-mot-porteur-de-valeurs.html?item_id=2676
[4] Idem.
[5] www.granddictionnaire.com/btml/fra/r_motclef/index800_1.asp
[6] Société d'histoire et du patrimoine de la région de la Sarre, (2008). **Étude d'ensemble et inventaire du patrimoine bâti de La Sarre**. Ministère de la Culture, des Communications et de la Condition féminine du Québec et de la ville de La Sarre, p 1.

وإذ انتشر مصطلح التّراث بشكل عام والتّراث المبني بشكل خاص أثناء سبعينيّات القرن الماضي، فقد تأثّر هذا المصطلح بالتيّار العالمي وبالخصائص الاجتماعية والاقتصادية للتّراث في حدّ ذاته. وعموما يمكن تحليل التّراث المبني اعتبارا للوسط الزّمكاني. التّراث المبني هو البيئة المبنيّة التي صمّمت وأنشئت من طرف الإنسان، والتي تحمل الثّنائية (الجمالية /التّطبيقيّة أو الممارستيّة)، بحيث أنّها تعطي الفرصة للإنسان لكي يعبّر عن أفكاره اتّجاه علاقته بالعالم الخارجي. وبشكل آخر التّراث المبني يعطي صورة حقيقيّة لكيفيّة إدارة الإنسان لمجالاته بخلق مرآة معمارية تعكس كيفيّة تفكيره فيما يتعلّق بداخله وبالعالم الخارجي. وقبل ذلك كل من مصطلح "ملكيّة ثقافيّة" ومصطلح "أثر تاريخي" كانت أكثر استعمالا في الموجودات التّاريخية والثّقافيّة. في سنة 1954 اعتمدت اليونيسكو اتفاقيّة لحماية الموجودات التّاريخيّة من الصّراعات العسكريّة والحربيّة بانتقاء مصطلح "ملكيّة ثقافيّة"[8]. في الاتفاقية مصطلح تراث استعمل كبديل لمصطلح ملكيّة ثقافيّة. وقد اقترح ويبر أن يحل مصطلح تراث محلّ مفهوم أثر تاريخي وذلك في سبعينيّات القرن الماضي[9].

كان مصطلح أثر تاريخي مستعملا بشكل واسع على المستوى العالمي في العمارة كقيمة فنّيّة وتاريخيّة. في ذلك الوقت كان الحراك العالمي لحماية الممتلكات التّاريخية والثّقافيّة مهتمّا ببقاء الماضي باستعمال مصطلح "أثر تاريخي"، ولعلّ أهم شاهد على ذلك ميثاق فونيس سنة 1964[10]، وقد استعمل مصطلح التّراث كمصطلح عام يتعلّق بملكيّات الإنسان بدون أيّ تفصيل في المعنى. وبداية استعمال مصطلح "التّراث" كانت أثناء فعاليّات المؤتمر الأوروبي لرؤساء الحكومات في بروسالس سنة 1969، فقد استعمل بجانب مصطلح "أثر" ضمن التّوصيّات المتعلّقة بمسؤوليّة الوزارات في حماية ورد الاعتبار للتّراث الثّقافي للآثار والمواقع. ورغم ذلك إلاّ أنّه أصبح مصطلحا عالميّا عندما أعلنت اليونيسكو سنة 1972 اتفاقيّتها المتعلّقة بحماية التّراث الثّقافي والطّبيعي العالمي. لاحقا وفي سنة 1975 استعمل المجلس الأوروبي هذا المصطلح بتسمية ميثاقه المتعلّق بالعمارة تحت عنوان "الميثاق الأوربي للتّراث المعماري"، وعلاوة على ذلك نجد أنّ مصطلح تراث قد استعمل في وثائق الاتحاد الأوروبي المتعلّقة بالثّقافة للتعبير عن الثّقافة الأوروبيّة.

وقد تطوّر مفهوم مصطلح "التّراث" منذ سنة 1970 كان تحت ثلاث صفات:

– أوّلا: فهو يشمل الموارد الطّبيعيّة لكي تكون تراثا طبيعيّا، مثل المساحات الخضراء والمواقع الطبيعيّة والحدائق العامّة وغير ذلك، فالطبيعة بعذريّتها وبكلّ العناصر التي تكوّنها وبتأثّرها أو بعدم تأثّرها بالعوامل المناخيّة تعطي انطباعا إيجابيّا يعيد له استقراره الرّوحي من خلال التّأمّل في التّراث الطّبيعي بشتى أنواعه وأشكاله [11].

– ثانيّا: وهو يشمل التّراث الثّقافي، ويعتبر تعريفه واسعا، ونجد معناه في الاتفاقيّة المتعلّقة بحماية التّراث الثّقافي لليونيسكو ونذكر منها مايلي:

" الآثار: أعمال معمارية وأعمال أثرية نحتيّة ولوحات فنّية وعناصر أو هياكل آثار طبيعيّة وحروف منقوشة وكهوف سكنت من قبل ومركّبات معلميّة، التي لها قيمة عالميّة ذات مستوى عالي من المنظور التّاريخي والفنّي والعلمي.

---

[7] Oxford English Dictionary, (1970). Vol. 5 Oxford University Press, p.242.

[8] UNESCO, (1954). **Convention for the Protection of Cultural Property in the Event of Armed Conflict (The 'Hague Convention')**.With Regulations for the Execution of the Convention, as well as the Protocol to the Convention and the Conference Resolutions.

[9] Weber R, (1970). **European Heritage**. Editorial, No. 3, p.1.

[10] http://www.icomos.org/docs/venice_charter.html

[11] UNESCO, (1972). **Convention Concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage**.

مجموعات من بنايات: مجموعات من بنايات مترابطة أو منفصلة، التي اعتبارا لعمارتها وتجانسها أو موقعها في المنظر العام، لها قيمة عالميّة ذات مستوى عالي من المنظور التّاريخي والفنّي والعلمي.
المواقع: هي أعمال للإنسان أو اتّحاد أعمال الطبيعة والإنسان التي تتضمّن مواقع أثريّة بقيّم عالميّة رفيعة المستوى من منظور تاريخي وجمالي وإثنولوجي وأنثروبولوجي "[12].

– ثالثا: فهو يشمل أيضا الموجودات الثّقافيّة الحديثة مثل التّراث المبني الصّناعي والأدوات في المتاجر أو المصانع العتيقة ومواقع مناجم الفحم وغير ذلك. وهذه ظاهرة حديثة بحيث لم تعد القيمة الفنّية هي المعيار الوحيد للحكم ما إذا كانت البقايا التي بين أيدينا هي تراث أم لا. (القيمة العمليّة للبقايا أصبحت أمرا مهمّا).

معايير الانتقاء الخاصّة بالتّراث

القيمة العالميّة عالية المستوى شرط أساسي لكي يضاف الموقع أو المبنى التّراثي في قائمة تراث العالم، كما يشترط أيضا أن يتوفّر فيه معيار واحد على الأقل من المعايير المدوّنة أسفله، فهذه المعايير مراجعة بطريقة نظاميّة من طرف اللّجنة المختصّة في اليونيسكو لتعكس تطوّر مفهوم تراث العالم[13]. ابتداء من نهاية سنة 2004، المواقع التّراثيّة في العالم يتمّ انتقاؤها على أساس ستّة معايير ثقافيّة وأربعة معايير طبيعيّة، ومع اعتماد الدّليل العملي المراجع الخاصّ بتنفيذ اتفاقيّة تراث العالم، تمّ التّوصّل إلى مجموعة واحدة تتكوّن من عشرة معايير[14]:

1- يمثّل تحفة لإبداع إنساني عبقري.

2- يعرض تبادلا مهمّا لقيّم إنسانيّة أو له امتداد زمني داخل المجال الثّقافي للعالم أو ضمن المراحل التطوّريّة للعمارة والتّكنولوجيّا أو آثار فنّيّة أو تخطيط حضري أو رسم لمنظر طبيعي.

3- يحمل شاهدا فريدا أو استثنائيا لثقافة تقليديّة أو لحضارة قائمة أو زالت.

4- أن يكون نموذجا لنوع مبني عال المستوى، لمجموعة أو منظر معماري أو تكنولوجي والذي يعطي مثالا لمرحلة أو مراحل ذات معنى في التّاريخ الإنساني.

5- أن يكون نموذجا ذا مستوى عالي لتجمّعات تقليديّة إنسانية أو أرض مستغلّة أو بحر مستغل، بحيث تمثّل ثقافة (ثقافات)، أو تفاعلا إنسانيا مع البيئة خاصّة بعد أن أصبحت هذه الأخيرة عرضة للأخطار تحت تأثير التّغيرات المتكرّرة.

6- أن يكون مواكبا بطريقة مباشرة أو واقعيّة للأحداث أو لتقاليد الحياة، مع الأفكار، أو مع الاعتقادات، مع الأعمال الفنّيّة أو الأدبيّة بالمعنى العالمي عالي المستوى. (اعتبرت اللّجنة بأنّ يستعمل مقترنا مع المعايير الأخرى).

7- أن يحوي ظاهرة طبيعيّة خارقة أو مساحات بحسن طبيعي استثنائي وجمال هام.

8- أن يكون نموذجا عالي المستوى يمثّل مختلف مراحل تاريخ الكرة الأرضيّة، بما في ذلك نمط العيش ومعاني السّيرورة الجيولوجيّة في تطوّر أشكال اليابسة أو معاني سمات أو الأشكال الفيزيائيّة لمختلف المعالم.

9- أن يكون نموذجا عالي المستوى يمثّل كيفيّة ومدى السّيرورة البيئيّة والبيولوجيّة ضمن النّمو والتطوّر الأرضي والمياه العذبة والنّمو والتطوّر السّاحلي وأنظمة البيئة البحريّة والمجموعة النّباتيّة والحيوانيّة.

---

[12] UNESCO, (1983). **Conventions and Recommendations Concerning the Protection of the Cultural Heritage**.

[13] عساسي عبدالحليم، (2017). **التراث المبني بوادي الأبيض: التصنيف وإشكالية الطراز والنمط والطابع**. ساربروكن، ألمانيا: نور نشر.

[14] www.whc.unesco.org/en/criteria/

10- يحوي المواطن الطّبيعيّة المهمّة التي تتطلّب حفاظا لمختلف الأنواع البيولوجيّة، بما في ذلك الأنواع المهدّدة ذات القيمة العالميّة عالية المستوى من المنظور العلمي أو من منظور الحفاظ.

وقد وصنّف الدّليل العملي لليونيسكو هذه المعايير سنتي 2002 و2005 كما هو مبيّن في الجدول التّالي[15]:

الجدول 1. تصنيف معايير الانتقاء الخاصّة بالتّراث العالمي لسنتي 2002 و2005

سنة الدّليل العملي	معايير ثقافيّة	معايير طبيعيّة
2002	1، 2، 3، 4، 5، 6	1، 2، 3، 4
2005	1، 2، 3، 4، 5، 6	8، 9، 7، 10

حماية وتسيير وموثوقيّة وإدماج الملكيّات كانت محل اهتمام واعتبارات دائمة. ومنذ سنة 1992 عرفت التّفاعلات ذات المعنى بين الإنسان والبيئة الطّبيعيّة باسم "المناظر أو المشاهد الثّقافيّة".

وفي دراسة المعنى الذي تتضمّنها الأشكال المادّيّة في التّراث المبني أو المعماري استخدمت الطّريقة السّيميائيّة، حيث أكّد على استخدام هذه الطّريقة إيكو، واستوجب النّظر إلى الطّريقة السّيميائيّة على أنّها تتعدّى مجرّد التّعرّف على الثّقافة بمثابة أنّ هذه الأخيرة نظام من العلامات، بل حسبه فتمكّننا هذه الطّريقة من دراسة الظواهر الثّقافيّة داخل نظام من العلامات للتّمكّن من رؤية الثّقافة على أنّها نظام للاتّصال[16].

وتتطلّب مجموعة الرّموز التي تكتنف التّراث المبني بحثا حثيثا لتفسيرها لمعرفة كيفيّة حدوث عمليّة الاتّصال، فحسب تورنر فهناك ثلاثة مستويات لدراسة تلك الرّموز[17]:

- المستوى الأول متعلّق بالمعنى المحلّي للرّمز: ونتحصّل عليه انطلاقا من الاستجابة المباشرة للثّقافة المادّيّة السّائدة وبناء على ما يقوله السّكّان المحلّيّون ومختلف تأويلات الأشخاص والإخباريّين.
- المستوى الثّاني المتعلّق بالمعنى الإجرائي: مستوى عميق يسعى لفهم الرّمز بناء على استخدامه، في صور شعائريّة Rituals للمعلومات الخاصّة بالرّمز وذلك بالرّجوع لمختلف ردود الأفعال الخاصّة بمختلف مستخدمي تلك الرّموز.
- المستوى الثّالث المتعلّق بعلاقة الرّمز بالرّموز الأخرى: ويمكن تسميّته بالمعنى المحيطي أو المعنى القائم على العلاقة، وهو المستوى المبني على نسق الرّموز التي تميّز الثّقافة المادّية بما في ذلك ثقافة البناء، أو الثّقافة المعمارية بكلّ ما تحمله من أنساق رمزيّة مميّزة.

[15] www.whc.unesco.org/en/criteria/
[16] Eco U, (1980). **Function and sign: The semiotics of Architecture**. Chichester: John Wiley & Sons.
[17] Turner V, (1967). **The forest of symbols: Aspects of Nedembu Rituals**. London: Cornell University Press.

حالة الدراسة: مدينة " خنقة (سيدي) ناجي " أو " تونس الصغيرة "

الموقع الجغرافي لمدينة " خنقة (سيدي) ناجي "

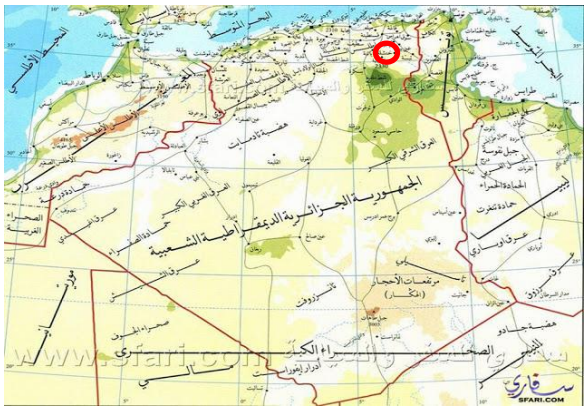

شكل رقم 01. موقع " خنقة (سيدي) ناجي " في الجزائر
(المصدر : www.sfari.com).

إذ تقع الأوراس في الجهة الشمالية الشرقية للجزائر، وتضم كلا من باتنة وبسكرة وخنشلة، ويميزها أربع وديان: وادي الأبيض ووادي عبدي ووادي القنطرة ووادي العرب. فعلى الضفة الشرقية لهذا الأخير تقع " خنقة (سيدي) ناجي " شرق عاصمة الولاية بسكرة، وتبعد عنها بحوالي 100 كم عبر الطريق الوطني رقم 83. ويعتبر وادي العرب جزءا مهما من منطقة الأوراس، فمياهه الآتية من سد بابار تمر بكل من تبندوت وخيران وشبلة والولجة ثم " خنقة (سيدي) ناجي " مناخها بارد شتاء، وشبه حار جاف صيفا، وتأتيها الرياح من الجهة الشمالية باردة شتاء ومن الجهة الجنوبية الغربية حارة صيفا. وتسمية " خنقة " للطبيعة التضاريسية للمنطقة وجريان الوادي بين جبالها وكيفانها، فانفتاح لمجرى الوادي تارة، وضيق لمجرى الوادي تارة اخرى. تسمية " خنقة " إذن، تعني الفج أو المضيق بين جبلين[18].

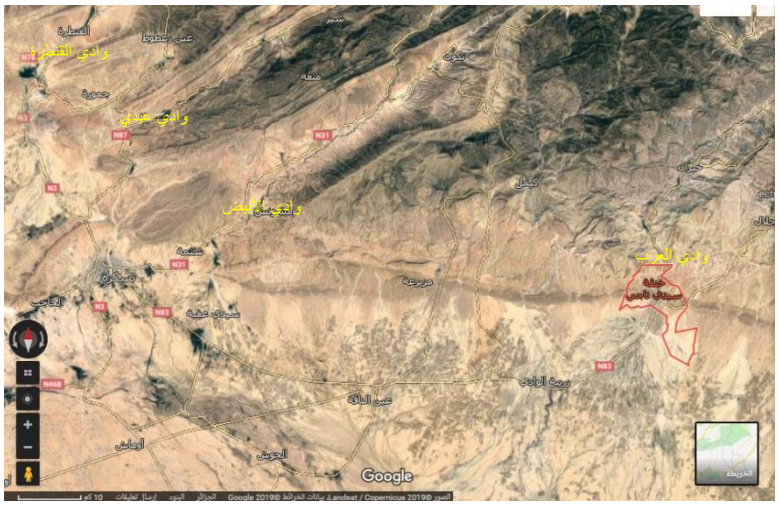

شكل رقم 02. موقع " خنقة (سيدي) ناجي " بالنسبة لوادي العرب ومدينة بسكرة
(المصدر : www.google.com/maps/place/خنقة+سيدي+ناجي).

[18] السعداوي أحمد، (2016). « التواصل بين إيالتي تونس والجزائر ». **السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية**، عدد 1، تونس.

شكل رقم 03. صورة فوتوغرافية لـ " خنقة (سيدي) ناجي "
(المصدر: السعداوي، 2016).

نبذة مختصرة عن نشأة مدينة " خنقة (سيدي) ناجي "

يقول الله عز وجل في محكم تنزيله في الآية سبع وثلاثين من سورة إبراهيم، بعد أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم: " رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ "؛ آية كان يرددها الشيخ (سيدي) " المبارك بن قاسم " يرحمه الله عند ما قصد منطقة " مورد النعام " بالجزائر (خنقة (سيدي) ناجي حاليا) بعد رؤية رآها في المنام أين أسس أول لبنة لهذه المدينة عام 1010هـ / 1602م بإنشاء زاوية للصلاة ولتعليم شتى العلوم بما في ذلك علوم الشريعة الإسلامية، سرعان ما أصبحت وجهة لطلاب العلم من كل حدب وصوب، فتوسعت بعد ذلك وأصبحت تسمى بـ " المدرسة الناصرية "، ويذكر أن خمسة قبائل على الأقل قصدت مع الشيخ (سيدي) " المبارك " المكان فاستوطنت وبنت مساكنها به فظهرت معالم لمدينة مقسمة إلى خمسة أحياء رئيسة، ولما ذاع صيت زاويتها ومدرستها الناصرية أصبحت المدينة فيما بعد تلقب أيضا بـ " تونس الصغيرة " محاكاتا لـ " تونس " وجامع " الزيتونة "، ونشير قبل هذا أن الشيخ " المبارك " سمى المدينة باسم " خنقة (سيدي) ناجي " تبركا بجده الشيخ (سيدي) " ناجي " يرحمه الله دفين ساحة الخيل بتونس العاصمة[19]. كما ذكر في مطوية التعريف الوجيز بتاريخ " خنقة (سيدي) ناجي " لجامع (سيدي) " المبارك " أن قدوم الشيخ (سيدي) " المبارك بن قاسم " إلى مورد النعام أو كما تسمى حاليا " خنقة (سيدي) ناجي " كان مع عدة قبائل وهي قبيلة صدراتة، وقبيلة هزابرة، وقبيلة زهانة، وقبيلة دريد، وقبيلة زناتة، وقبيلة روفة، وقبيلة نهد، وعند إنشائه لأول مسجد بها(مسجد (سيدي) " المبارك ") ملتصقة به ما يسمى فيما بعد بالمدرسة " الناصرية "، ظهر حي صغير سمي بحي " كرزدة " والذي يعتبر فيما بعد من الأحياء العريقة بهذه المدينة الصغيرة، والذي تشكلت بعده أربعة أحياء أخرى وهي حي " السوق " وحي " موسى " وحي " صدراتة " وحي " اللواتة "، ونشير أيضا إلى وقف للوافدين القاصدين طلب العلم بهذه المدينة الذين لا مأوى لهم متمثلا فيما يسمى بحارة " الحبس "، كما نشير أيضا إلى المتداول فيما يتعلق بالتقسيم إلى خمسة أحياء وخمسة سواق وخمسة مساجد أنه راجع إلى التيمن والتبرك بأركان الإسلام الخمس. كما تظهر إلى غاية اليوم أجزاء وآثار السور المحيط بالمدينة آنذاك والذي له بابان كان يحرسانهما حراس بالتناوب، ويحيط بكل حي أيضا سور وبابان[20].

---

[19] السعداوي أحمد، (2016). المرجع السابق.

[20] مطوية جامع سيدي المبارك، (2018). **مطوية التعريف الوجيز بتاريخ خنقة سيدي ناجي**. خنقة (سيدي) ناجي: مسجد (سيدي) المبارك.

شكل رقم 04. صورة جوية لـ " خنقة (سيدي) ناجي "
(المصدر: خنقة+سيدي+ناجي/www.google.com/maps/place).

بعض أهم شواهد التراث الثقافي والمعماري لمدينة " خنقة (سيدي) ناجي "

- مسجد (سيدي) " المبارك "

جاء في مطوية التعريف الوجيز بتاريخ " خنقة (سيدي) ناجي " لجامع (سيدي) " المبارك " ما يلي:

" وكان أباء سيدي المبارك يسكنون الأندلس في عهد الخلفاء الأمويين وبعد سقوط غرناطة هاجروا نحو تونس حيث عاش جد الأسرة سيدي ناجي الأكبر وابنه سيدي قاسم فالتف حولهما العديد من الأتباع والموردين وكان سيدي ناجي الأكبر من أولياء الله الصالحين وهو مدفون في ضريح بساحة الخيل بتونس العاصمة، وهكذا انتقلت الولاية إلى سيدي لمبارك الذي تنقل عبر بلاد المغرب الى ان استقر به المقام في خنقة سيدي ناجي مع أتباعه "[21].

فكما أسلفنا الذكر، بعدما استقر الشيخ (سيدي) " المبارك بن قاسم بن ناجي " بـ " مورد النعام " التي سماها باسم جده " خنقة (سيدي) ناجي " بنى أول مسجد والمسمى مسجد (سيدي) " المبارك بن قاسم بن ناجي " كأول نواة لمدينة " خنقة (سيدي) ناجي "، حيث تموقع في مكان يتصل مع الجنان والواد غربا وبالوافدين والقاصدين شرقا، ويظهر أن الحرم تم توجيهه نحو القبلة، كما يتضح من المئذنة المربعة القاعدة أن المسجد بني على الطراز المغاربي وفق النمط التونسي بصحن شبه منحرف (الشكل رقم 05)، وله ارتباط مع المقبرة والمدرسة الناصرية، ومن بين أهم القيم الأثرية الاستثنائية للمسجد ومحيطه تذكر ما يلي:

- الطراز المغاربي (التونسي) للمئذنة ذات القاعدة المربعة.
- شكل الصحن شبه المنحرف المحاط برواق أقواس.
- إحتوائه للعديد من النقوش والزخارف وفق النمط التونسي العريق.
- تسجيل لأسماء الأساطى (النقاشين والفنيين) وسنة إنجاز تحفهم الفنية بالمسجد.
- إلتحامه بالمدرسة الناصرية والسرايا والمقبرة الخاصة.
- وجود مقبرة الأتراك (السبع) مقابلة للباب الغربي للمسجد.

[21] مطوية جامع سيدي المبارك، (2018). المرجع السابق.

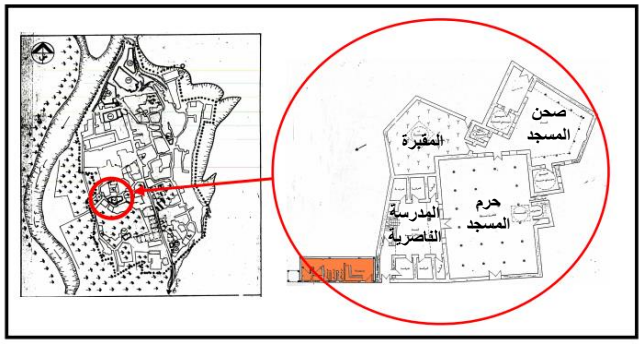

شكل رقم 05. مخطط موقع المسجد ومخطط الطابق الأرضي للمسجد مع المقبرة والمدرسة الناصرية (المصدر: مخلوفي، 2010).

شكل رقم 06. صور فوتوغرافية خارجية تظهر مسجد (سيدي) " المبارك " (المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

- المدرسة الناصرية

بنيت المدرسة الناصرية عام 1171 هـ الموافق لـ 1751 م من طرف الشيخ أحمد بن ناصر بن محمد بن الطيب، فكانت مركزا لنهل العلم الشرعي وشتى العلوم، وكانت تتكون من خمس عشر غرفة بنظام داخلي، تخرج من هذه المدرسة العديد من العلماء، بعضهم تابع دراسته في الزيتونة والأزهر، ومن بينهم محمد المدني بن المكي بن الصديق (عالم دين، ومقترح تسمية البصائر على الإمام عبدالحميد بن باديس)، عمراني مسعود (قاضي)، قويع عمارة (طبيب)، حسين بن ناصر (عالم فلك)، العربي التبسي (عالم لغة وفقه)، الشاذلي مكي (ممثل الجزائر في الدول العربية)...الخ[22].

[22] مطوية جامع سيدي المبارك، (2018). المرجع نفسه.

شكل رقم 07. صور فوتوغرافية للمدرسة الناصرية

(المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

- السرايا

تسمى أيضا قصر " الحساينية "، وقد تم تشييدها سنة 1679 م، وتتقاسم سقيفة أقواس مع مسجد أو كما يسمى أيضا جامع (سيدي) " المبارك "، تتكون السرايا من ثلاثة طوابق، الأول منها يعتبر إقامة للقائد، أما باقي الطوابق فهي مقسمة على ستة إلى سبعة عائلات. تعتبر السرايا أيضا مكانا لالتقاء السكان لفض النزاعات وحل المشاكل اليومية. كما تتواجد بها مكتبة، مما يجعل منها أيضا مكانا لتعلم شتى المعارف بما في ذلك علوم الشريعة الإسلامية، ويتوسط الصحن السرايا محاطا بالغرف المختلفة (مع وجود بئر في مركزه) [23].

شكل رقم 08. مخطط تموضع السرايا بالنسبة لمسجد (سيدي) المبارك

(المصدر: مخلوفي، 2010).

[23] Makhloufi S, (2010). ***La sauvegarde du patrimoine . Entre interventions ponctuelles et stratégie globale. Cas de la dachra de Khanguet Sidi Nadji***. Mémoire de Magistère en Architecture, Université de Biskra.

شكل رقم 09. صور فوتوغرافية للسرايا

(المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

- التركيبة العمرانية

كما أسلفنا الذكر فبعد إنشاء مسجد (سيدي) " المبارك " محاطا ومحاذيا للجنان المحاذية بدورها للضفة الشرقية لوادي العرب، بدأت تتشكل الأحياء الخمس تباعا اعتبارا للسواقي الخمس، وبالموازات مع العائق الجبلي الشرقي وبشكل خطي عضوي، بتراص بين المباني مما خلق مناخا مصغرا يختلف عن مناخ خارج الواحة الذي يتميز بالحرارة والجفاف صيفا، فتشكل بذلك النسيج العمراني بنمط تواصلي متلاصق يفصله ممرات شبه مغطات، تتشابك أحيانا أحجام البنايات أعلاها لتخلق أنفاقا تحتها للعبور من حي لآخر (تسمى " السقيفة "، ولها دور بيومناخي أيضا يتمثل في تلطيف الجو)، كما تظهر أن المدينة محاطة بسور مع بوابتين خارجيتين وبوابات داخلية بين الاحياء. ونشير إلى أنه أثناء فترة الاستدمار الفرنسي عرفت المدينة بعض الممارسات السيئة من طرفه مثل التهديم وتغيير الوظيفة الأصلية خاصة شمال " خنقة (سيدي) ناجي "، وبعد الاستقلال تم يناء بعض البنايات على حساب الجنان خاصة شمال غرب المدينة.

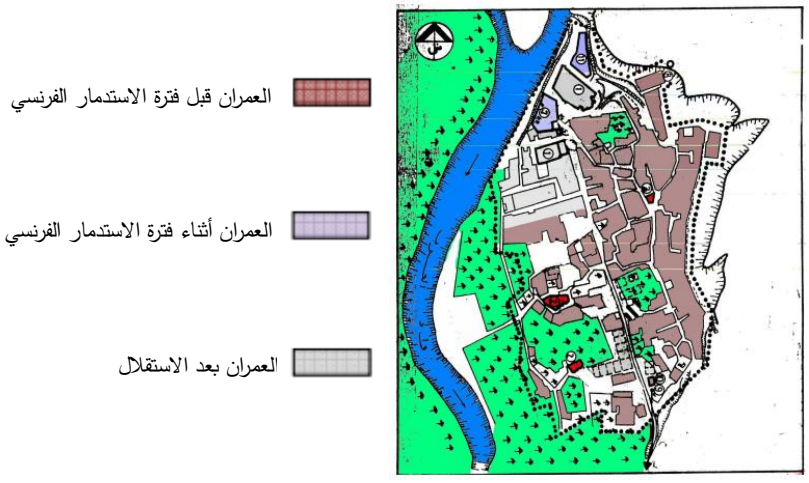

شكل رقم 10. مخطط تمثيلي للتركيبة العمرانية لـ " خنقة (سيدي) ناجي "

(المصدر: مخلوفي، 2010).

شكل رقم 11. صور فوتوغرافية لبعض عناصر عمران " خنقة (سيدي) ناجي "
(المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

- المساكن

من خصائص المساكن في " خنقة (سيدي) ناجي " التدرج المجالي من الخارج نحو الداخل، فبعد بوابة المدخل، نجد السقيفة، ثم الفناء المركزي التموقع، ثم باقي المجالات أفقيا وعموديا. الميزة الغالبة في مساكن " خنقة (سيدي) ناجي " تتمثل في الفناء، كمركز للأنشطة اليومية ويطلق عليه أيضا مسمى " وسط الدار ". من أهم مميزات أغلب المساكن في هذه المدينة الصغيرة أيضا وجود طابق ثان وأحيانا سطح مستعمل فوق هذا الطابق الثاني على عكس الكثير من المناطق الصحراوية الأخرى، وهذا يدل على قدرة التحكم في تقنيات البناء ومواده، والذكاء في التعامل مع الطبيعة الطبوغرافية الانحدارية للمنطقة. نشير أيضا إلى اختراق السواقي لبعض المساكن عبر أفنيتها (الشكل 12).

شكل رقم 12. صور فوتوغرافية داخلية لبعض مساكن " خنقة (سيدي) ناجي "
(المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

- السوق

تميزت " خنقة (سيدي) ناجي " اقتصاديا بالطابع الفلاحي في بداية نشأتها وأولى مراحل عمرانها، حيث كانت من أهم منتوجاتها التمر الذهبي العلكي، والقمح والشعير آنذاك، وبالموازات مع تصاعد صيت علمائها ومدرستها، حيث أصبحت مقصدا محليا ودوليا، ازدهرت التجارة بها وكثرت المحلات والدكاكين فيها وظهر بها السوق " الخنقي "، وظهرت معه حرف أخرى كالصياغة والحدادة والحياكة والصيدلة الشعبية وصناعة العطور، وغير ذلك.

شكل رقم 13. صور فوتوغرافية للسوق

(المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

- الفن المعماري في " خنقة (سيدي) ناجي "

وفي معرض الحديث الفن والعمارة في " خنقة (سيدي) ناجي " يقول الأستاذ الدكتور أحمد السعداوي مؤكدا عن في هذا الإطار علاقة التقارب بينها وبين مدينة " تونس ":

" ... ويتجلى هذا التقارب بوضوح في مجال العمارة والفنون، وقد أشار قوستاف مارسيي Mercier Gustave أن الخنقة تشبه في عمارتها المدن التونسية، بل نجد بها بعض القطع الفنية التي تعتبر من أجمل ما أنتج الفن التونسي في العصر الحديث. لذلك لا نستغرب أن تحمل البلدة من ضمن تسمياتها اسم" تونس الصغيرة " . "[24].

وتتكرر كلمة الأسطى في النقوش وأصلها تركي وتعني المعلم الخبير في إتقان إحدى الصناعات أو الفنون، مثل الأسطى أحمد بن عمر التونسي الذي أنجز نقوش محراب جامع (سيدي) " المبارك" سنة 1734 م، وآخرون تركوا بصماتهم بهذه المدينة، كما توجد الكثير من التحف الفنية بها تبقى شاهدة ليومنا هذا على الحس الفني الذي يتسم به مستوطنو هذه المدينة، ونذكر منها البوابة الغربية لمسجد (سيدي) المبارك التي تتميز بزخارف نباتية وهندسة منجزة على الحجر بنمط تونسي عريق، كما يقلد الفنانون التونسيون بهذه المدينة الخزف الإزنيقي زخرفة وألوانا.

شكل رقم 14. تحلّيه زخارف منجزة على الحجارة تنتمي إلى نمط تونسي عريق

(المصدر: السعداوي، 2016).

[24] السعداوي أحمد، (2016). المرجع نفسه.

شكل رقم 15. مثال لتقليد الحرفيين بمدينة " خنقة (سيدي) ناجي " للخزف الإزنيقي زخرفة وألوانا (المصدر: المؤلفان، ديسمبر 2018).

خاتمة

من خلال الدراسة نستخلص أنّ أهم النتائج كانت متمثلة في كون أنّ " خنقة (سيدي) ناجي " كانت مدينة علم ودين وثقافة وفلاحة وتجارة، فبعض الشواهد التي ذكرت في هذا المقال ما هي إلى جزء من الكم الهائل الذي تزخر به، كما أنّ تلك الشواهد وغيرها تجعل منها حاضرة تراثية ومعمارية وثقافية تستحق إعادة الاعتبار لها وتعميم ترميمها وبعثها من جديد. وإذا مرّرنا تراثها المعماري على معايير الانتقاء الخاصة باليونيسكو فستكون جديرة بحق لأن تصنف ضمن التراث الثقافي والمادي العالمي لليونيسكو، بداية من المعيار الأول المتمثل في كونها تحفة لإبداع إنساني عبقري إلى غاية المعيار العاشر والمتمثل في كونها تحوي المواطن الطّبيعيّة المهمّة التي تتطلّب حفاظا لمختلف الأنواع البيولوجيّة. فالمشاهد والزائر لـ " خنقة (سيدي) ناجي " يلحظ بشكل جلي الأبعاد التاريخية والثقافية والفنية التي يمكن قراءتها آليا وبكل سهولة من خلال مكوناتها التراثية المعمارية الناطقة.

من أهم التوصيات التي يمكن نسجيلها من خلال هذه الورقة هي ضرورة الالتفات الجاد لهذه المدينة التراثية من طرف السلطات المحلية والمركزية للبلد، بعمليات الحفاظ الإجرائية المستعجلة، فأجزاء كثيرة من البنايات تهاوت أو على وشك التهاوي. كما نشير مؤكدين أنّ إعادة بعثها من جديد يجعلها مقصدا حقيقيا للسياحة وموردا اقتصاديا فعالا، فهي تمتلك كل المؤهلات لذلك. ونلفت انتباه السلطات أنّ أسس الاستثمار السياحي موجودة ذاتيا في " خنقة (سيدي) ناجي "، ماعليها إلاّ تفعيل الآليات المسطرة في مخططات التنمية السياحية للوصاية.

المراجع

(18) السعداوي أحمد، (2016). « التواصل بين إيالتي تونس والجزائر ». **السبيل: مجلة التاريخ والآثار والعمارة المغاربية**، عدد 1، تونس.

(13) عساسي عبدالحليم، (2017). **التراث المبني بوادي الأبيض: التصنيف وإشكالية الطراز والنمط والطابع**. ساربروكن، ألمانيا: نور نشر.

(1) مشاري عبدالله النعيم، (2010). **سفر العمران**، ط1. الدمام: مطابع الشركة الشرقية.

(20) مطوية جامع سيدي المبارك، (2018). **مطوية التعريف الوجيز بتاريخ خنقة سيدي ناجي**. خنقة (سيدي) ناجي: مسجد (سيدي) المبارك.

(16) Eco U, (1980). **Function and sign: The semiotics of Architecture**. Chichester: John Wiley & Sons.

(23) Makhloufi S, (2010). ***La sauvegarde du patrimoine . Entre interventions ponctuelles et stratégie globale. Cas de la dachra de Khanguet Sidi Nadji***. Mémoire de Magistère en Architecture, Université de Biskra.

(7) Oxford English Dictionary, (1970). Vol. 5 Oxford University Press, p.242.

(6) Société d'histoire et du patrimoine de la région de la Sarre, (2008). **Étude d'ensemble et inventaire du patrimoine bâti de La Sarre**. Ministère de la Culture, des Communications et de la Condition féminine du Québec et de la ville de La Sarre, p 1.

(17) Turner V, (1967). **The forest of symbols: Aspects of Nedembu Rituals**. London: Cornell University Press.

(8) UNESCO, (1954). **Convention for the Protection of Cultural Property in the Event of Armed Conflict (The 'Hague Convention')**.With Regulations for the Execution of the Convention, as well as the Protocol to the Convention and the Conference Resolutions.

(11) UNESCO, (1972). **Convention Concerning the Protection of the World Cultural and Natural Heritage**.

(12) UNESCO, (1983). **Conventions and Recommendations Concerning the Protection of the Cultural Heritage**.

(9) Weber R, (1970). **European Heritage**. Editorial, No. 3, p.1.

(3) www.constructif.fr/bibliotheque/2006-2/les-sens-multiples-d-un-mot-porteur-de-valeurs.html?item_id=2676

(5) www.granddictionnaire.com/btml/fra/r_motclef/index800_1.asp

(10) www.icomos.org/docs/venice_charter.html

(2) www.restauration-patrimoine.fr/missions.php

(14) www.whc.unesco.org/en/criteria/